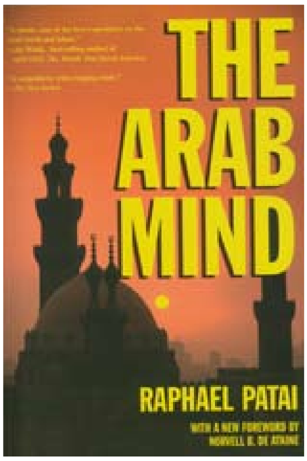

العقل العربي 42

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل العاشر
الحَدية والعاطفة، الخيال والواقع

4. المستويات الوظيفية الثلاثة: الأفكار، الأقوال، الأفعال

إذا حاولنا أن ندرك الارتباط بين الجوانب المختلفة للشخصية العربية، فمن المفيد أن نتفحص الاختلاف الذي يوجد بين العرب ضمن المستويات الثلاثة للوجود والتي يمكن تمييزها في أي فرد أو جماعة. إن كل فرد منا ينخرط بشكل دائم في أداء فعل ما، ويعبر هذا الفعل عن نوايانا، ولكنه في الوقت نفسه، يتأثر بالعوامل أو النوايا الخارجية، ومنها السيطرة التي تمارس علينا من قبل المحيط الاجتماعي والبيئي. ويمثل عالم الفعل والنشاط المستوى الأول للوجود. أما المستوى الثاني فهو الأقوال؛ حيث نعبر بالألفاظ عن نوايانا التي لا نستطيع تنفيذها بسبب العوائق الخارجية. وبهذا الاعتبار، ينسجم التعبير اللفظي مع النوايا أكثر من الأفعال. بالإضافة إلى ذلك، يتوقف المرء عن التلفظ بأمور معينة لوجود سبب ما يتعلق بواقع المحيط الذي يعيش به. أما المستوى الثالث فهو النوايا ذاتها، وتتضمن الخواطر التي تسرنا، والأماني التي نحلم بها، والأفكار التي نؤمن بها، وما إلى ذلك. إن عالم العقل، كمصطلح يمكن إطلاقه على المستوى الثالث، يعتبر أكثر المستويات الثلاثة استقلالا عن المؤثرات التحديدية التي يفرضها المحيط. ومع ذلك، وبما أن الأفكار لا يمكن فرض الرقابة عليها، فإنها تتعلق بالواقع إلى حد كبير. ولا يمكن للشخص الطبيعي أن يستمتع بأفكار ذات خلاف واضح مع الواقع، وهو إن مارس بعض «التفكير الطموح» أو حتى «أحلام اليقظة» فإنه يظل دائما على دراية بالفرق بين أمثال هذه من أفكار العطالة وبين الواقع.

وفي ما يتعلق بالسيطرة التي يمارسها عامل الواقع على الأفكار والأقوال، لا شك في وجود اختلافات جوهرية في تأثيرها على كل من الأفراد والجماعات. ففي المجتمع الذي يتخذ

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل العاشر: الحَدية والعاطفة، الخيال والواقع

توجها عمليا نجد أن الشخصية النمطية تكون متأثرة بشدة بالواقع وبالأخص ما يصدر عنها من أقوال. أما على الجانب الآخر، فنجد مجتمعات لا يمارس فيها الواقع درجة عالية من التأثير على الأفكار والأقوال. وبهذا المعيار، يقف المجتمع الغربي على أحد الجانبين السابقين، بينما يقف العرب بالقرب من الجانب الآخر؛ إذ يمكن للتفكير والتعبير اللفظي أن يكونا بعيدين نسبيا عن التلاؤم مع ما تفرضه الظروف.

لقد وجد ي. حرقبي أن عملية التفكير والتعبير اللفظي يتمتعان عند العرب بدرجة عالية من الاستقلالية؛ فالأفكار والأماني والتعبير اللفظي عنها تنمو بحرية بعيدا عن سيطرة الواقع. وبما أن عملية التفكير غير ظاهرة للعيان في العادة، فهي بالأخص تمثل التفاوت بين التعبير اللفظي والأفعال الظاهرة. ولا علاقة لشدة الفعل أبدا بالتعبير اللفظي الذي يعبر عن وظائف عقلية كالمشاعر والإلهام والمثل والأماني والأفكار. ويتابع حرقبي فيرينا أن العديد من الباحثين العرب يكونون هم أنفسهم مدركين للتفاوت ما بين أماني العرب ورغباتهم وأخيلتهم والكلمات المعبرة عنها، وبين الواقع الذي ينبغي أن تتفق معه أفعالهم. ومع أن قدرا معينا من التفاوت ما بين الايديولوجيا والتعبير اللفظي من جهة وبين الأفعال من جهة أخرى إنما هو ظاهرة بشرية عامة، فإن ذلك التفاوت يبلغ قدرا كبيرا في العالم العربي، ورغم ذلك لا يمكن القول بوجود فاصل مطلق ما بين المثالي والواقعي عند العرب.[1]

كما وردت ملاحظات مماثلة قبلها بعدة بسنوات للباحث مورو بيرغر الذي تحدث عن «ولع العربي بالمظاهر المثالية» الأمر الذي يلتصق به «عاطفيا رغم معرفته بتناقضه مع الواقع». وبينما يلاحظ وجود «تمييز ما بين المثالي والواقعي في مجتمعات أخرى أيضا»، فإن تلك المجتمعات تعي بشكل أكبر «الفجوة الفاصلة ما بين الاثنين، ويتموضع المثالي في وعيها برسوخ أشد باعتباره أساسا لتقييم الواقع». لكن العرب من جهة أخرى «يخلطون بين الاثنين، مجاهرين بالإيمان، عكس الواقع، بأن المثالي ينجز بالسلوك ومتطابق مع

1) حرقبي: موقع العرب في الصراع العربي الإسرائيلي؛ ص376-378، 380.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل العاشر: الحَدية والعاطفة، الخيال والواقع

الممارسة...». وهنالك مظهر حديث لهذه النزعة يتمثل في حب العرب لخطة «يمكن أن تكون مثالية، كلوحة للخط العربي» تتصف بـ«التأكيد على المظهر لا المعنى»، وذلك دون أي اعتبار للقدرة على تنفيذ أمثال هذه الخطة. «وهنالك أيضا الشعور بأن المرء عليه أن لا يخرج عن حدود الخطة، بحجة أن الصورة المثالية كافية، وأنها دائما ذات جمالية سارة أكثر بكثير من انعدام الدقة واللانظام الذي يتصف به الواقع».[1]

ويتراءى لي هنا أن صلة نفسية توجد ما بين الظاهرتين اللتين ناقشناهما في ما مضى من صفحات. إن التفاوت ما بين السلوك المنضبط وغير المنضبط يمكن أن يتصل بالقوة غير الكافية التي تمارسها حقائق الواقع على النفس العربية. فالنفس المتأثرة جيدا وعميقا بعوامل الواقع لا تملك وقتا لانفجار العواطف التي لا تتصل بصلة مع الواقع. هذا الانفجار الذي يتماثل بنيويا مع «غضب العاجز» الذي يعبر عنه بنوبات مزاجية طفولية؛ بل إنها عوضا عن ذلك تحاول التعامل مع إحباطات الحياة التي لا مناص منها بردات فعل عقلانية هادفة. وعلى نحو مشابه، يمكن النظر إلى الفجوة القائمة بين الأفكار والأقوال من جهة، وبين الأفكار والأفعال من جهة أخرى، باعتبارها نتيجة للفشل في اختراق الواقع بشكل كافٍ. ومن يتسلى بالأفكار ويتلفظ بأقوال لا يمكن ترجمتها إلى أفعال إنما يتسلى برحلة في عالم الخيال لما فيه من إرضاء عاطفي للنفس. ورغم أن هذا الإرضاء ليس شديدا كحاله عندما ينتج عن الانفجار العاطفي، فإنه يستمر لمدة أطول وينجز الهدف الأساسي ذاته: القضاء على عالم الواقع المرفوض، والسماح للفرد بالعيش، لمدة مهما طالت أو قصرت، في عالم من صنع أمنياته.

إن ما سبق جميعه لا يعني ما ادعاه بعض الباحثين العرب والغربيين بوجود «خلط» في

---

1) مورو بيرغر (Morroe Berger): العالم العربي المعاصر، ص160-161. وليس هنالك ثمة تناقض ما بين ملاحظة بيرغر حول ميل العرب إلى تبني الخطط، وبين ملاحظتي حول نفورهم من التخطيط طويل الأمد، وذلك لأن بيرغر إنما تكلم عن العرب المتأثرين بالحداثة والتغريب، وهم لا يزالون قلة، بينما تكلمت أنا عن الأغلبية المتأثرة بالتقاليد. وحتى أن بيرغر يقول في الصفحة 161 من كتابه هذا بأن «المرء يمكنه الإحساس هنا بتأثير القدرية الدينية أيضا؛ فمن الجيد جدا للإنسان الفاني أن يضع الخطط، ولكن عليه أن لا يتحدى القدر من خلال محاولة تنفيذها».

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل العاشر: الحِدية والعاطفة، الخيال والواقع

العقل العربي بين الواقع والخيال. بل إن الأمر يتجاوز ذلك، إذ إن ما يفعله هذا العقل هو الاختيار الهادف بإعطاء أهمية أكبر في الأفكار والأقوال للأماني دون الواقع، ولما يحب المرء أن تكون الأمور عليه لا ما يكون عليه واقعها الموضوعي. وفي اعتقادي، لا أرى أن ذلك يشير إلى وجود خلط. ولكن توجد على الأقل منطقة واحدة في الحياة يتصرف فيها الغربي على نحو مشابه لتصرف العربي: وهو الدين. فالغربي يختار في هذا المجال بشكل هادف أن يولي أهمية أكبر في أقواله وأفعاله لأعمال الرب، والذي يمثل ما يرغب المرء بأن تكون الأمور على شاكلته، أكثر مما يولي لعلاقة السببية المقيَّمة موضوعيا فيما يخص المعاناة الإنسانية. وبالنسبة لعلماء البوذية وأي تابع لديانة أخرى من الديانات غير الإلهية، يبدو ذلك «خلطا» بين الواقع والخيال. لكن الغربي محمي من هكذا «خلط» في غير المجال الديني، ويعود ذلك بشكل أساسي إلى أنه ترك الدين في زاوية بعيدة من كيانه.

إن التنمية الثقافية العربية لم تقم بعد بالفصل بين الدين والجوانب الأخرى للحياة. ولذلك، لا يستبعد أن تفضيل العربي للأفكار (الأماني، الخواطر، المثاليات، الطموحات...) على الواقع الحقيقي يخرج من دائرة الدين، ليخترق مع الدين كافة الجوانب الأخرى للحياة. وبعيدا عن أن تكون هذه الرؤية تمثيلا للخلط بين الواقع والخيال، فإنها تعتبر الخيال جانبا أساسيا من الوجود في كلّ من هذا العالم (الدنيا) وما بعده (الآخرة)، بينما يكون الواقع، والذي ينحصر وجوده في هذا العالم، وفي جزء وحيد من هذا العالم، لا يحظى إلا بأهمية قليلة نسبيا.

إن الطريقة التي نقيم بها عدم الاكتراث بالواقع والالتصاق بالخيال يعتمد إلى مدى بعيد على انطباعنا العام حول الشخص أو الجماعة المدروسة. فالعديد من أبطال التاريخ كانوا موضع إعجاب لتصميمهم البطولي على ملاحقة الخيال وعدم الاكتراث بالواقع. ومن الجانب الآخر، إذا كنا نتكلم عن شخص أو شعب لا يعجبنا، فإننا نميل إلى تناول موقفه أو موقفهم باعتباره بعيدا عن الواقع.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل العاشر: الحَدية والعاطفة، الخيال والواقع

ولا نزال إلى يومنا هذا بعيدين عن معرفة محصلة التجربة التاريخية التي خاضها العرب منذ استقلالهم عن السيطرة الغربية. فالقوى التي دفعتهم إلى الأمام عديدة، ولكن يمكن تصنيفها بشكل عام في فئتين: تلك التي أطلقتها عملية التغريب، والقوى التي كانت موجودة في الشخصية العربية منذ قرون عديدة ولكنها كسبت مدى جديدا بعد الاستقلال. وتتكون القوى الأخيرة من الخصائص التي ناقشها هذا الفصل من الكتاب: التفكير والتصور بالحدود؛ وتذبذب السلوك بين الانضباط والانفلات؛ والانفصال ما بين الأفكار والأقوال من جهة، وبين الأفعال من جهة أخرى؛ والنزوع إلى تفضيل الخيال على الواقع. إن كل من تلك الخصائص يمكن إظهارها على نحو إيجابي مع التعاطف، أو نحو سلبي مع الإدانة. ولكن الأهم من ذلك هو أن كلا منها يحمل في ذاته بذور نمو مثمر وانهيار وذبول في الوقت نفسه. ولن يتمكن إلا مؤرخو المستقبل من أن يكونوا في وضع يسمح لهم بتقييم ما ستتفتح عنه تلك البذور.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©